مسابقة الجامعة المصرية

لطلبة السنة التوجيهية

للدكتور زكى مبارك

— ٤ —

على هامش التاريخ المصرى القديم

كلمة اليوم عن كتاب « على هامش التاريخ المصرى القديم » لسعادة الأستاذ عبد القادر حمزة باشا ، وهو كتاب يقع فى أربعين ومائتى صفحة بالقطع المتوسط ، وبه كثير من الصور والرسوم التى توضح ملامح ذلك التاريخ

الأسلوب

أسلوب عبد القادر حمزة أسلوب فريد بين أساليب الكتّاب فى هذا العصر ، وهو فى غاية من الجمال ، وإن لم يذكّرك بأنه جميل ، لأن الصنعة فيه أخفى من الخفاء

وعبد القادر حمزة يقيم تعبيره على قواعد المنطق ، فالتعبير عنده مقدمات تصل إلى نتائج ، ولا تمرّ صفحة مما يكتب بدون أن تلمس فيها وضوح الحجة ونصاعة البرهان

وعبد القادر حرّ الفكر إلى أبعد الحدود ، وما صحبه رجلٌ إلا عجب من الشجاعة التى يمتاز بها عقله الوثّاب ، مع القدرة الغريبة على ضبط النفس ، ومع المهارة فى تقديم الحجج « على أقساط » ليتسع له المجال فى تشريح المعانى والأغراض

ومن هنا كان عبد القادر عدوًّا خطيراً حين يعادى ، لأنه لا يحاول الإجهاز على خصمه بمقال أو مقالين ، وإنما ينوشه برفق ودهاء من يوم إلى يوم ومن أسبوع إلى أسبوع ، ثم يظل يراوحه ويناديه إلى أن يأتى على مركزه من الأساس

بين العلم والسياسة

قد يقال إن هذا أسلوب عبد القادر فى مقالاته السياسية ، لا فى أبحاثه العلمية

ونجيب بأن عبد القادر هوهو فى جميع الأحوال ، فعبد القادر لم يفكر فى درس التاريخ المصرى القديم إلا فى سنة ١٩٢٤ ، فماذا صنع فى هذه الأعوام القصار ليكون من أقطاب المؤلفين فى ذلك التاريخ ؟

عمد الرجل إلى طائفة من المضلات الأساسية فدرسها بتعمق واستقصاء ، ثم خرج من ذلك الدرس بمحصول يحسده عليه الإخصائيون ، وقد تمرّ أعوام وأعوام قبل أن تظفر اللغة العربية بكتاب يضارع كتابه فى دقة العبارة ونفاسة الاستطراد

حشو اللوزينج

وحشو اللوزينج فى تعبير كتّاب القرن الرابع يُضرَب مثلاً للشىء يكون حشوه أجود من قشره ، ومن أشهره قول عوف بن محلّم :

إن الثمانين ـ وبُلِّغتَها ! ! ـ قد أحوجتْ سمعى إلى ترجمان

فعبارة « وبُلِّغتَها ! ! » حشوٌ ، ولكنها أجل من المحشوّ ، لأنها غاية فى الرفق والحنان

وكذلك ينقسم كتاب عبد القادر حمزة إلى حشو وعشوّ ، فالحشو هو الهامش ، والمحشوّ هو الأصل ، ولم أجد كتاباً يكون فيه الهامش أغزر من الأصل قبل أن أعرف كتاب عبد القادر الذى أغرم بحشو اللوزينج بعد التفات النقاد إليه بعشرة قرون

فأرجو الطلبة أن يلتفتوا إلى هامش هذا الكتاب أكثر من التفاتهم إلى الأصل ، لأن عبد القادر جرى فى الهوامش على فطرته الأصيلة من التعقب والاستقصاء فأتى بالأعاجيب

وهل برع عبد القادر إلا فى الهوامش ؟

إن هذا الرجل يحارب بالأخبار المنثورة أعنف مما يحارب بالمقالات الطوال ، وهو قد نقل أسلوبه فى الصحافة إلى أسلوبه فى التأليف ، فليراع الطلبة هذا الفن الدقيق

ناشر

قلت إن عبد القادر يصل إلى غرضه برفق وتلطّف ، فما شواهد ذلك ؟

إليكم الشاهد الأول :

قال ابن عبد الحكم : « لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه حين دخل بَؤُونة . فقالوا : أيها الأمير ! إن لنيلنا سُنّة لا يجرى إلا بها . فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بِكر من أبويها ، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلىّ والثياب

أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى النيل . فقال لهم عمرو : هذا لا يكون فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما قبله . فأقاموا بؤونة وأبيب و مسرى وهو لا يجرى قليلاً ولا كثيراً ، حتى همّوا بالجلاء ، فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك . فكتب إليه عمر : « أنْ قد أصبت ، إن الإسلام يهدم ما قبله ، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى النيل إذا أتاك كتابى » فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها : « من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر ؛ أما بعد فإن كنت تجرى من قِبَلك فلا تجر ، وإن كان الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » . فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء ، لأنه لا يقوم بمصالحهم فيها إلا النيل ، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً فى ليلة وقطع السوء عن أهل مصر فى تلك السّنة »

فماذا صنع عبد القادر حمزة فى تفنيد هذه الأسطورة البلهاء وقد انتقلت من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل حتى احتلت بعض الكتب المدرسية بالمدارس الثانوية ، وحتى دخلت فى منهج الاحتفال بوفاء النيل بصورة رمزية ؟

أخذ عبد القادر يَدُور ويَدُور حتى صيّر هذه الأسطورة أضعف من وهم الخيال

ولكن كيف ؟

هل فزع إلى المنطق فقرر أن من المستحيل أن يتوقف فيضان النيل على عروس تُلقَى إليه ؟ هل سارع فاستغرب قول ابن عبد الحكم إن النيل توقف ثلاثة أشهر عن موعده الموقوت وفى ذلك هلاك لأهل هذه البلاد ؟ هل أنكر أن يكون لبطاقة عمر ابن الخطاب قوة الوهوم من آثار التمائم والتعاويذ ؟

لو أن المؤلف اكتفى بهذه المحاولات لوصل إلى الغاية فى نقض ذلك الحكم السخيف ، ولكنه رأى الرجوع إلى المأثور عن المصريين القدماء فلم يجد لهذه الخرافة سنداً تعتمد عليه ، فلو كان لها أصل لسُجِّلت فى بعض ما سُجِّل من أخبار الفيضان ، ولو كان لها أصل لَعُدّ فِقدان عروس النيل سبباً فى بعض ما أصاب مصر من مجاعات ، ولو كان لها أصل لذُكِرَتْ فى « نشيد النيل » وهو نشيد قد استوفى خصائص هذا النهر العظيم وتحدث عما أطاف به من أوهام وأضاليل ، ولو كان لها أصل لذكرت عروس النيل بين الهدايا التى كانت تقدم إليه فى الحفلات ، فلم يبق إلا أن تكون خرافة خلقها وَهْمُ القُصّاص ، ثم تبعهم ابن عبد الحكم بلا تمحيص ولا تحقيق

سؤال

من حق طلبة السنة التوجيهية أن يوجهوا إلى سعادة عبد القادر حمزة باشا هذا السؤال :

كيف نشأت هذه الخرافة وهى من المستحيلات ؟

وأتطوع بالإجابة عن هذا الصديق فأقول :

يشهد كتاب الأستاذ نفسه بأن النيل كان يلقى فيه قرطاس من البَرْدِىّ يُدْمَى فيه النيل إلى أن يفيض ، وكان الكهنة يزعمون أن للكتابة التى فى ذلك القرطاس قوة سحرية

فذلك القرطاس هو الأصل لبطاقة عمر بن الخطاب ، والأساطير يستقى بعضها من بعض

بقيت عروس النيل ، فما أصل تلك العروس ؟

يشهد كتاب الأستاذ نفسه بأنه كان يُتَقرَّب إلى النيل بذبح عجل أبيض ، ومن السهل أن نقول إن الذبيح كان بقرة بيضاء والبقرة البيضاء يعبر عنها مجازاً بالجارية الحسناء ، وفى بعض تعابير الفرنسيين توصف البقرة بأنها Bonne femme

ويؤيد هذا التعليل أن المصريين القدماء لم يعبدوا البقرة إلا لأنهم رأوا فيها مخايل من حنان المرأة المفطورة على الطاعة والسجاحة والصفاء

شاهد ثان

والشاهد الثانى على منطق الأستاذ عبد القادر باشا هو تحديده لمركز هيرودوت ، فهذا المؤرخ اليونانى هو الحجة على مصر فى تاريخها القديم ، وما عُرِفتْ مصر القديمة فى شرق ولا غرب بأكثر مما عُرِفتْ عن طريق هيرودوت

فما الذى قال عبد القادر باشا فى ذلك المؤرخ « الأمين » ؟

لقد قتله بكلمة واحدة حين قرر أنه لم يزر مصر فى عهد إشراقها وإنما زارها فى عهد الأفول ، فكان مثَله مثل من يأخذ السيرة النبوية عن سَدَنَة الكعبة فى هذا الجيل ، وهم لا يعرفون من سيرة الرسول غير أطياف تصوَّر عن طريق الرمز الواهم ما كان عليه الرسول من عظمة وجلال

شاهد ثالث

تحدث عبد القادر باشا عن « السذاجة المصرية » فى تقدير ما للشهور والأيام من غرائب وأمانيل

ومن رأى هذا الباحث أن ما قيل عن الأيام والشهور فى عهد رمسيس الثانى لا يزيد عما يقال فى عهد فاروق الأول ، فهى هنا وهناك صور لأوهام العوام الجهلاء ، وليست حجة على العقل الصحيح لأهل هذه البلاد ، فما يقال عن يوم ٥ طوبة فى عهد رمسيس الثانى شبيه بما يقال عن يوم ٥ طوبة فى عهد فاروق الأول . ومعنى ذلك أن العوام لهم آفاق غير آفاق الخواص ، وإلا فمن الذى يصدق أن أهل مصر فى هذه الأيام يبنون أحكامهم العاشية على ما يرد فى مثل تقويم « طوالع الملوك » ؟

شاهد رابع

وفى هذا الشاهد تظهر القوة المنطقية لهذا المؤلف الخصيف ، فالدنية المصرية هى أقدم المدنيات فى التاريخ ، وآثار المصريين هى أقوى وأنفس وأثمن ما أثر عن القدماء فى جميع الممالك والشعوب ؛ وقد دامت المدنية المصرية القديمة أكثر من أربعين قرناً فى وقت لم يكن فيه لغير مصر سلطان ملحوظ فى الشرق أو فى الغرب ، فهل كان يمكن للمصريين أن يتفوقوا على العالم القديم بلا علم وبلا أخلاق ؟

وكيف كان يمكن للمصريين أن يسودوا إذا صح أنهم كانوا جهلاء ؟ ؟

وكيف يجوز عليهم الجهل وقد خلفوا آثاراً فنية وأدبية هى الغاية فى براعة الأذواق ورجاحة العقول ؟

وهل من الجائز عقلاً أن تقام الأهرام فى بلد لا يعرف أهله قيمة النظام وقيمة التطلع إلى الخلود ؟

وهل يستطيع إنسان موهوب أن ينكر أن آثار الأقصر هى أثمن ما خلفت الإنسانية فى عهدها القديم ، إن صح أنها استطاعت خلق ما يفوق تلك الآثار فى العهد الحديث ؟

وبأى قوة سحرية جاز لتلك البقعة النائية أن تكون عروش القرون الخوالى ؟

لقد شغلت نفسى بأسرار تلك البقعة من الوجهة الطبيعية ، فلم أجدها تنتج غير اللحوم والبقول ، فهل يكون سر التفوق فى غزارة اللحوم والبقول ؟

إن كان ذلك ، فكيف انقضى عهد العظمة « الأقصرية » بعد ذلك التاريخ ؟

وكيف انتقل مجد مصر من الجنوب إلى الشمال ؟

تلك أسئلة توجه إلى الأستاذ عبد القادر حمزة ، فهل يجيب ؟

أما أنا ، فأقول : كان المصريون تحصنوا بالأقصر ليسلموا من عدوان الوافدين من جهة الشمال ، وبذلك حصروا نشاطهم الفنى والاقتصادى فى « كعبة » الأقصر ، كما حصر العرب نشاطهم الفنى والاقتصادى فى « كعبة » الحجاز ، والتاريخ هو التاريخ ، وإن تلونت الأشعة والظلال

عراقة المدنية المصرية

شغل المؤلف نفسه بالتدليل على عراقة المدنية المصرية ، وهى أقدم مدنية عرفها التاريخ ، ولا ينافسها فى القدم غير حضارة الكلدان فى وادي الفرات

وعلى الطالب أن يقرأ ما كتب المؤلف فى هذا الموضوع بعناية وتدقيق ، ولكن يجب قبل ذلك أن يعرف الأصل الذى استوجب عراقة المدنية المصرية ، وذلك الأصل هو النيل ، فالنيل هو النهر الثانى فى العالم بعد المسيسبى من حيث القوة ، ولكنه النهر الأول فى العالم من حيث المدنية ، فهو أقدم نهر قامت على شواطئه كبريات المدائن ، وأقدم نهر نظمت فيه الملاحة واتخذت مياهه مطايا لخدمة الاقتصاد ، وهو كذلك أقدم نهر أوحى إلى أهله عرائس الشعر والخيال

فإذا تمثل الطالب هذا المعنى كان عليه أن يذكر أن للمصريين أسبق الأمم إلى حفر الآبار ، لأن أرض مصر لينة جداً ، ولأن الماء مخزون فى جميع البقاع بهذه البلاد ، وقد يوجد فى سفوح الجبال ، وهنا وذاك يشرحان السبب فى تعلق المصريين بواديهم أشد التعلق ، حتى ساروا مثلاً فى بغض الهجرة والارتحال

أقول هذا لأؤيد حجة الأستاذ عبد القادر حمزة فى قوله بأن المدنية المصرية بنت مصر لا بنت شعب آخر ، ولو قال إنها نبت مصر لكان التعبير أظرف ، لأن المدنية المصرية نشأت فى خصائصها الأصيلة وكأنها من عمل الطبيعة لا من عمل الناس

والمشكلة هى درس مسألة السبق إلى المدنية ، فهل كان السبق للمصريين أم للكلدانيين ؟

ولكن كيف خُلِقت هذه المشكلة ؟ خلقها التشابه بين المدنية المصرية والمدنية الكلدانية فى كثير من الشؤون . فهل يدل هذا التشابه على النقل ؟ أم يكون شاهداً على تبادل الصلات الأدبية والاقتصادية بين هذين الشعبين العريقَيْن ؟

هنا تظهر قوة عبد القادر حمزة فى التعمق والاستقصاء ، فقد وصل بالمنطق وبشواهد التاريخ إلى أن المصريين سبقوا الكلدانيين إلى الحضارة والمدنية ولم يترك الموضوع إلا بعد أن صيّره غاية فى الوضوح والجلاء

التقويم المصرى

وفى كتاب عبد القادر قضية من أغرب القضايا الإنسانية ، وهى قضية التقويم ؛ فقد كان العالم كله يعتمد فى تقسيم الزمن على الدورة القمرية ، وهو تقسيم مقبول ولكنه غير دقيق ، لأنه لا يصلح قاعدة لتعيين مواسم البذر والحصاد

وكذلك كان المصريون أول المتحولين عن التقويم القمرى إلى التقويم الشمسى ، وقد قسّموا السنة إلى ثلاثة فصول ، كل فصل منها أربعة أشهر ، وهى فصل الفيضان وفصل البذر وفصل الحصاد

والتقويم المصرى هو التقويم الذى حمله يوليوس قيصر من مصر إلى روما ، وهو التقويم الذى عدّله مجمع الكرادلة تعديلاً طفيفاً فى سنة ١٥٨٢ ثم صار تقويم العالم كله إلى اليوم

وإذا تذكرنا أن التقويم المصرى كان موجوداً إلى سنة ٤٢٣٨ قبل الميلاد ، أى قبل حُكم الملك مينا بأكثر من ألف سنة ، أدركنا فضل مصر فى السبق إلى دقة الحساب

وفيما كتب عبد القادر عن هذا الموضوع صفحات جديرة بالدرس والتعقيب ، فليس من القليل أن نكون دِنّا أمم الشرق والغرب بذلك التقويم الدقيق .

معركة عقلية

هى المعركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية ، وهى المعركة التى انتهت بانهزام الكنيسة ورجوعها صاغرة إلى أن تفسّر التوراة تفسيراً جديداً تسلم من التصادم مع الآثار المصرية

فما سبب تلك المعركة ؟ ومن الرجل الذى درس البروج المصرية ثم انتهى من درسها إلى القول بأن الحضارة المصرية ترجع إلى أبعد من خمسة عشر ألفاً من السنين ؟ وما الذى قال العلماء الموافقون لبونابارت ؟ وما هو البُرج الذى نُقل إلى فرنسا فَبَلْبَلَ الأفكار الأوربية ؟ ومن هو الشاب الفرنسي الذى أدى لمصر أعظم خدمة تاريخية ثم حمله الخوف من سلطان الكنيسة على المواربة فى قضية البروج ؟ ومن هو العالم الذى قرر أن الثقة بالمسيح لا تمنع من مسايرة الحقائق العلمية ؟ وعلى أى أساس برّرت الكنيسة خروجها على حَرفيّة العهد القديم لتصح النظرية المصرية فى قدم الوجود ؟

عقيدة الحساب بعد الموت

ذلك بحث نفيس كتبه عبد القادر فى أيام صفاء ، فما تفاصيل هذا البحث ؟

لهذا البحث عناصر كثيرة ، ولكنى أرجو أن يفكر الطلبة فى الموازنة بين الأخيلة المصرية والأخيلة اليونانية ليعرفوا كيف استطاع المؤلف أن يقيم البراهين الساطعة على أن المصريين سبقوا اليونان إلى تصور عقيدة الحساب بعد الممات بما يدل على فهمهم لفكرة العدل

ودرس هذا البحث يُعين على فهم البحث الذى يليه وهو تأثير المدنية المصرية فى المدنية اليونانية وتعيين ما اقتبس هوميروس من أساطير المصريين

وهذان البحثان يهمّان كل مصرىّ يحب أن يعرف مركز وطنه فى التاريخ ، فقد استطاعت أرض يونان أن تزعم أنها أنقب فكراً من وطن النيل ، وساعد على تأييد هذا الزعم أن كان للعرب سفراء العقل اليونانى فى الممالك الآسيوية والأوربية ، فى أوقات لم يملك فيها المصريون أدوات النقض لمزاعم اليونان

لمحة من التعقيب

المصريون هم أساتذة اليونان القدماء باعتراف الجميع ، ولكن العقل المصرى كان غفا بعد أن تعب من اليقظة التى هدّمتْ أعصابه فى عشرات الأجيال ؛ ثم كانت صحوة العقل اليونانى بعد ذلك ، وهى الصحوة التى عرفها العرب يوم عزموا على « إحياء » المطمور من آثار القدماء . فمن طاب له أن يزعم أن مصر تعيش بعقلية يونانية فسيقهره المنطق الحق على الاعتراف بأن اليونان لم تؤدِّ إلى مصر إلا بعض ما تلقّتْ من علمها الأصيل فى العصور الخوالى ، ولا بُدّ يوماً أن تردّ الودائع ، ولو كَرِهَ كهنة دِلف وسَدَنة أولمبون !